صاحب كتاب « الابطال »

كارليل بعد خمسين سنة

بحث نقدي في رسالته الروحية ومقامه الأدبي

في ١٥ فبراير سنة ١٨٨١ ذهب فرود (Froude) الى دار كارليل فوجده ملقى على سريره ميتاً . وقد يكون من الواجب علينا أن نحاول ، وقد انقضى على وفاته خمسون سنة ، تحليل رسالته الروحية وتقدير أثرها . وليست هذه المحاولة في غير محلها . فان حق كارليل في محراب في هيكل الشهرة لا ينازَع فيه . ومع ذلك لا يذكر النقاد رجلاً من رتبته في عالم الادب ، يعجَب به الناس هذا الاعجاب من غير ان يفهموه . ففريق يسيء فهمه . وفريق آخر يفهمه بعض الفهم مقدماً في خلقه وآثاره بعض الصفات التي لو سئل فيها هو لوضعها في المقام الثاني . وثمة ثالث يعجب فقط مسلماً بعجزه عن الفهم . والواقع ان أثره الباقي ضئيلٌ — أو على الاقل ، إنه أضأل من الأثر الذي كان يتمنى أن يكونَ له . وإذا كان لابدَّ من الاعتراف بهذا فلا أقلَّ من أن نحاول تعليلَه

كان كارليل رجل فكرة فردة — والفكرة التي وقف عليها حياته هي « سلطان الحق المطلق » . كان لا يفهم الحق فهماً ضيقاً على أنه نظام مستقر لأدب النفس ، ولا انه ما تواضع الناس على وجوبه ، بل كان يفهمه بمعنى « الصلاح المطلق » الذي يحاول في كل عصر بل وفي كل آن أن يبدو في الفرد وفي الحياة الاجتماعية والقومية . وان غرض الانسان من الوجود إنما هو ان يكون اداة في يديه

على أننا لا نقوه بهذا الحكم على الفكرة الاساسية التي قامت عليها رسالة كارليل حتى نسمع صدى حكم معارض بأن صميم رسالته انما هو « الحق للقوة » . فاذا كان « سلطان الحق » هو أساس تعاليم كارليل كما قدمنا ، فكيف نستطيع ان نعلل ما يقوله بعض النقاد من أنهم لا يجدون في كتاباته إلاَّ الفكرة المناقضة . والواقع ان النقاد الذي لا يجدون في كتابات كارليل الاَّ أن « الحق للقوة » إنما يفهمونه فهماً سطحيًّا . وسبب ذلك ليس ببعيد التناول . اذ لا بدَّ أن يبدأ كارليل رسالته القائمة على « سلطان الحق المطلق » بوصف العالم كما يراه أي بارأي المناقض لرأيه ، فيعترض على كل مظاهر الخداع والرياء والصغار السائدة في كل ناحية من نواحي الحياة . وهذه أمور لا يجب أن تكون ، ثم يجيل طرفه

في عصور التاريخ ؛ فيرى رجالاً شتاة يعترضون نص اعتراضه هذا في كل أعمالهم فيتخذهم عنواناً لكتاباته . ولكن بعض القراء ينبهُ عنهم أن فريقاً من هؤلاء الرجال، الذين ساق سيرهم لبسط الجانب السلبي من رسالته ، لا يصلح لبسط الجانب الايجابي . ولعل فردريك الكبير اظهر الأمثلة على ما نقول . ومع أنهم كانوا لا يصلحون لتأييد رسالته من ناحيتها الايجابية إلا أنه اتخذهم مدخلاً وعنواناً لها فقط . فهؤلاء رجال يقامرون بكل قواهم في تحدي العالم . ومن حصر النظر في ما كتبه عنهم نشأ القول بأن صميم تعاليمه إنما هو أن « القوة حق » . ولكن كارليل كان لا يرضى إلاَّ بالخطبة كاملة ؛ ولو كان العنوان أو المدخل لا يدلُّ على جميع مغازيها . ولا يستطيع ناقد أن يؤيد قوله بأن فكرة كارليل كانت تأييد « الحق للقوة » الا اذا اهمل نصف كتاباته

وعليه نعود فنؤكد أن الفكرة الاساسية التي بنيت عليها تعاليم كارليل إنما كانت « سلطان الحق المطلق » . فقد كان يدعو الى سيطرة الضمير بل أنه دعا الى ان الرجل يجب أن يكون ضميراً . وعليه ترى كارليل يرفع من شأن الخلق ، مميزاً الخلق عن السلوك . والخلق في نظره كان تحقُّقَ الانسان بأن الحق الخالد يوحي الى كل إنسان برسالة قد تحمله على عمل شيء . . . وقد لا تحمله ، ولكنها رسالة لا يستطيع الانسان أن يتجاهلها إلا ويدفع ثمن تجاهله لها شعوراً بألم الخطيئة والجحود . وإذا لم يسلِّم بأن الحق المطلق هو المكيف الأعلى للحياة ، ويعمل بهذا التسليم ، فالأفراد والأمم ، مهما يبلغون من الارتقاء في الظاهر ، انما هم ينحدرون سراعاً الى الهاوية . أن الارتقاء في نظر كارليل ، ليس شيئاً قط ، إذا لم يكن ارتقاء نحو تلك الصور العليا ، للحق المطلق مسيطراً على الحياة . فالتقدم في سلوك الانسان لا يقام له وزن لانه قد يعني ، ان الانسان اصبح قبراً مكلساً . وتعدُّد انواع الاحسان واتساع نطاقها لا يقام له وزن ، لأنه قد يعني أنك وقد أصبحت أقل اثرة مما كنت ، فأنت تزيد أثرة اخوانك اذ تدفعهم في منحدر المادية بقوة احسانك ، وأنك بذلك تأخذ من الحق باليد الواحدة ما تقدمه بالأخرى

وقد كان الغرض الذي يرمي اليه كارليل ، ان يترفع الناس عن هذه التحسينات الادبية الضئيلة ، وهذه الاصلاحات الصغيرة في النظام الاجتماعي والتشريعي ، وهي تحسينات واصلاحات لا تمسُّ جوهر الاصلاح — ومتى ترفعوا عنها وجب أن يصغوا الى صوت « الصلاح الخالد » المنطلق من قلب الكون فلا يسمعه الاَّ الذين يرهفون آذانهم لسماعه

ولم تنشأ دعوة كارليل الى الترفع عن وجوه الاصلاح والصقل الضئيلة من استخفافه بالقواعد الادبية واهماله لما في النظام الاجتماعي من جور واستبداد ، لاننا نستطيع

ان نستخرج من كتاباته ، صفحات برمتها ، تتردد فيها تلك النزعات النبيلة الى التنديد بالظلم والظلام. ولكن لا يكفي ان تبدأ الدعوة الى الاصلاح بالتنديد وتنتهي بالتنديد. ان ذلك لا يمس قلب الموضوع . والصورة العليا التي رسمها كارليل ، لم تشتمل على النوع البشري يحاول محاولات اليمة ان يتخذ شكلاً ادبيًا معينًا، ولا على نصف النوع البشري يجرب ان ينتج نظامهُ ويصلح من موقفهِ ازاء النصف الآخر، وانما كانت تشتمل على كل وحدة في النوع الانساني، اي على كل رجل — وامرأة — يحاول ان يصلح موقفه النفسي نحو «الحق» الكائن دائمًا من وراء ستار، والعامل ابدًا على اظهار نفسهِ في اعمال الناس وانظمتهم

ومقام كارليل بين الادباء ، من حيث الاسلوب ، مقام مؤرخ ، لا مقام روائي ولا مقام شاعر . وقد كان كذلك كاتب رسائل (essays) الى حدٍ ما ، ومع ذلك فمعظم رسائله تاريخيّ . حتى رسائله في النقد الادبي ، كانت في الغالب تاريخًا للمؤلف او الشخصية التي يعالجها ، بدلاً من بحثٍ في مميزاتها الادبية . وعليه فيجب ان نحكمَ عليهِ كمؤرخ . ولكننا نسارع الى القول بان كارليل كان يعنى بالتاريخ لان حوادثه جعلى لفكرتهِ الاساسية . ان التاريخ في نظرهِ، يبين لهُ عن نجاح الرجال او فشلهم في خدمة الحق الاعلى . فعقلهُ لم يؤخذ بالانقلابات التاريخية العظمى وعلاقة احدها بالآخر ، ولا بالاتجاهات العالمية التي تنبثق منها تلك الانقلابات . بل هم افراد التاريخ الذين استرعوا عنايتهُ ، لانهم يمثلون لهُ خدمتهم « للحق » او انصرافهم عنها . والواقع انهُ كان مترجمًا (كاتب سير Biographer) لا مؤرخًا بحصر المعنى . وهذا يصح على التاريخ الذي وضعه لثورة الفرنسية وهي من انقلابات التاريخ الخطيرة التي وجدت في كارليل مدونًا المعيًا . فهو في هذا التاريخ يعرض لاشخاص الثورة ، الواحد تلوَ الآخر — فآنًا صورة للملك الفرنسي الذي افضى بهِ حتفهُ الى المقصلة ، وآنًا لابطال الثورة الذين نشأوا من صفوف العامة، ودافعوا عن حقوق المظلومين وحاربوا حروبهم ، وآنًا آخر لاولئك المتعصبين ، يخدمون قضية نبيلة بوسائل دنيئة — كل اولئك يصفهم كارليل ويبين موقفهم من «الحق» .فتاريخه انما هو سلسلة من الصور الشخصية، مرسومة بدقة وبراعة، وفي كل صورة مميزات عقل المرسوم بل ودخائل نفسهِ

وقد دعي كارليل مؤرخًا فلسفيًا . ولكنهُ لم يكن مؤرخًا فلسفيًا قط . لا ريب في انهُ ليس مؤرخًا جافًا ولا هو مجرد مدونٍ للحوادث ، رغم حشدهِ للحوادث في كل صفحة من صفحاتهِ .انهُ لا يكتفي بتدوين وصف المعارك المتتابعة مع انهُ يستطيع متى شاء ان يجاري ابرع المكاتبين الحربيين في وصف خفوق الاعلام ودمدمة المدافع

ولكنه مع ذلك ، ليس مؤرخاً فلسفيًّا . انهُ لا يعنى بتحليل اتجاهات النفسية العالمية التي تنبثق منها كل مظاهر التاريخ الخارجية ولا علاقة هذه بتلك . انه لا يربط عصراً ما بالعصور التي سبقته ، ولا ينظم في سلسلة محكمة الحلقات سلسلة مفككة من الحوادث المتتابعة ، ولا يضع اصبعه على موكب العلل والمعلولات السائر من عصر الى عصر . وهذا هو صميم ما يجب ان يتصدى له المؤرخ الفلسفي . ومع ذلك ينصرف عنه كارليل من دون ان يمسه دع عنك معالجته وتحليله . وما يفعله في كتابة التاريخ ، عدا تدوين الحقائق ، انما هو ربط كل حقيقة ، وكل رجل ، « بالحق الاعلى » كما يراه . وهو الى ذلك بارع الوصف واضحه ، فخم الاسلوب بليغه ، ولكنه في الواقع لم يكتب التاريخ الا للغرض الذي وصفناه وبالطريقة التي بيناها

واذا شئنا ان نتوسع في تحليل كارليل كمؤرخ وجب ان نعنى بامور ثانوية ، من مثل انفصال عنايته « بالحق » ودعوته اليه عن شعوره الديني ، وترفعه عن الانتظام في اي حزب سياسي ، ولكنها امور ثانوية ، ولا متسع هنا للتبسط فيها

اذن اين العيب في هذه الجوهرة الصافية ؟ لماذا خفت هذا الصوت النبويُّ فلا اثر له اليوم ، او ان له اثراً ضئيلاً لا يعتدُّ به ؟

ان قارىء كتب كارليل ، وبعض ما كُتب عنه ، يتصوره رجلاً متقلب الاطوار حادَّ الطبع ، يستطيع احياناً ان يطلق كوامن نفسه في عبارات كسيول الحمم . وهذه الصورة ليست بعيدة كل البعد عن الحقيقة . ولكن لا بدَّ من التعمق في تحليل نفسيته اذا شئنا ان نعرف سبب فشله كمصلح كبير . والشيء الوحيد الذي يمكن ان يعلل لنا خيبته كمصلح رغم حرارته الادبية ، هو انه كان متبرماً تبرُّم القنوط . نعم ان التبرم صفة يتصف بها كل العظام من المصلحين والانبياء ، ولكنه ليس من نوع تبرم كارليل . اولئك يتبرمون بالبطء في تحقيق المثل العليا — وبالتلكؤ في سير مواكب العمران الى الامام — ان هذا التبرم صفة اساسية في كل صدر تثيره جذوة الاصلاح الادبي ، وهو يتسق مع صبر نحو الناس ، فتعامَل مواطن الضعف فيهم بلطف وعطف ، وتقابل اخطاؤهم برحابة صدر واحسان . هذا التبرم لا يثير في صوت المصلح نغمة المرارة ، فيسمعها المعنوُّ اليه دون رسالته الحقيقية ، ثم يبتسمون ويتركون صوته يدوي كصرخة في واد . ان هذا التبرم يرنّ في صوت المصلح فيجذب الناس اليه

ولكن تبرم كارليل كان تبرم يأس وقنوط . والواقع ان كارليل كان متشائماً فقد كان يبشر « بالحق » ولكنه كان ضعيف الرجاء بفوز « الحق » النهائي . فـ « الحق » في نظره سائر في طريق الى الهزيمة . وكل ما كان يستطيع ان يراه انما كان اندفاع الناس في منحدر

توماس كارليل من صورة زيتية صوّرها « وسلر »

مقتطف دسمبر ١٩٣١ — امام صفحة ٤٠١

لستَ تجد عن سفحه الا جهنم . وعليه كان كارليل ، يرى كلّ شيء ، وكل شخص ، بنظارتين لونهما التشاؤم والقنوط . والدليل على ذلك قائم في كل كتاباته ، وخصوصاً في الكتابات الاخيرة ، التي تناول فيها الشؤون العامة ، ورسائله الى فرود

من ابعث الامور على الاسى ان نشهد هذا الرجل ، الذي كان يستطيع ان ينفخ في صدور الناس روح الرجاء ويلهمها النشاط ، ويهيبهم بصوته الداوي ، الى الاعالي ، ويكبر بهم بحرارته فيحملهم ان يخطوا خطوة او خطوتين الى فوق — نقول من بواعث الاسى ، الا نجد في رسالة رجل كهذا إلا نغمة الهلاك . فقد كان يستطيع ان يرثي عالماً ينقصه كل ما يلزمه ليكون صالحاً ، ولكنه لم يكن يعتقد ان الصوت الكفيفة قد تصبح بصيرة . كان صوتاً داوياً في البرية ، ولكن البرية ، عنده ، لا يحتمل ان تبدع نغماً او تنبت زهرة . كان كارليل متبرماً ولكن تبرمه لم يكن ذلك التبرم النبيل المتطلع الى التحقق بعين الرجاء ، بل كان تبرّم القنوط

ولا يتعذر بعد هذا ان نلمس اثر هذه الصفة في حياته . اذا انت لم تكن مع كارليل فانت ضدّه . واذا انت لم تنضمّ اليه في كفاحه فانك تضيع وقتك سدى . ورغم ما قد ينطوي عليه عملك من الفائدة في ناحيته المعيّنة ، فلا تنتظر ان تسمع كلمة طيبة من كارليل . بل توقع أن تسمع منه كل شيء الا كلمة طيبة . والواقع ان تشاؤم كارليل حوّل النبيّ فيه في معظم الاحيان ، الى كارليل الساخر واحياناً الى كارليل السليط

وقد ظهرت آثار ذلك في اسلوبه . سلْ لماذا اختار كارليل رجلاً مستبدّاً مثل فردريك الكبير وجعل يمجده في سلسلة من المجلدات ، ترَ في تشاؤمه تعليلاً وافياً . في نظر كارليل ، «الصالح» عرضة للاساءة دائماً . ثم قلّب ذلك وقل — خطاء او صواباً — كل ما كان معرضاً للاساءة ، او يحارب حرباً غير عادلة ، هو «صالح» . وعليه لما رأى فردريك الكبير ، يحارب بغارة مسلحة ، وقرأ عنه واقعاً للدفاع عن نفسه ونصف اوربا آخذ بخناقه ، ولما كان رأيه في العلاقة بين الصلاح والعالم ما تقدم ، اختار موقف فردريك للتمثيل على هذه العلاقة — وكانت النتيجة ان فردريك اصبح في نظر كارليل جديراً بهالة المجد التي حاكها له . هذا هو كارليل . . . شهوة قوية للصلاح ، ممزوجة بالتشاؤم وقليل من التناقض وعدم المبالاة !

اننا لا نريد ان ندافع عن هذه النقائص . وانما نأسف أن صوتاً كهذا الصوت لم تدرك رسالته على صحتها . فنحن ندعو الى إحياء العناية بهذه الرسالة ، لان كارليل كان مصيباً إذا اعتبرنا أساسها . فهل يصغي العالم اليها الآن ، وهو أبعد ما يكون عن الاعتراف بسيطرة الحق ، وأشد ما يكون حاجة اليه . لنغضِ عن نقائص كارليل ، أيّا كانت ، ولنذكر ان دعوته الى «سيطرة الحق» كانت دعوة الهية . آه عن المجلة المعاصرة